المحاضرة الأولى: من النهضة العربية إلى فلسفة الإصلاح

تبلور مفهوم النهضة في الفكر العربي الحديث نتيجة اصطدام العقل العربي بالغرب، والذي تمثل في الشعور المزدوج بواقع تخلف الذات و تقدم الغير.بالطبع هذا الشعور هو ما شكل صدمة حادة في الفكر الذي كان يعتقد إلى وقت قريب أنه الأفضل،لأنه يملك مالم يملكه الغير. وفي ظل هذا الواقع تبلورسؤال النهضة،الذي تجلى في الإشكال:لماذا تخلف العرب و تطور الغرب؟ وماهو السبيل إلى التقدم والتطور؟

أولا: خطاب النهضة في الفكر العربي الحديث

في الحقيقة أن مفهوم النهضة من الناحية الاصطلاحية لا ينتميإلى الحقل الدلالي العربي الأصيل، فنحن قد لا نجد في القواميس العربية المعاني التي يتمّ إضفاؤها عليه في التاريخ المعاصر، إنّه تعريب للكلمة الفرنسية Renaissance و يقصد بها "ميلاد جديد" وهذا المفهوم يحيل إلى التجربة الأوروبية، التي انطلقت من إيطاليا في منتصف القرن الرابع عشر واستمرت حتى القرن السابع عشر وامتدت إلى بقية أوروبا، ويؤثر البعض أن يسميها الإحياء، لأن الحركة كانت في الواقع إحياء للتراث اليوناني وانفتاحا على كل ما اتصف به، حتى ولو كان ضد الإيمان والكنيسة، وتمثل الانفتاح في الاقتصاد في نمو حركة التجارة والرحلات البحرية، وفي العلوم في الكشوف الفلكية وخاصة نظرية مركزية الشمس، وفي الفلسفة العودة إلى الفلسفة الأبيقورية.

وخطاب النهضة كمصطلح لم يتداوله المفكرين العرب إلا بعد أن وجدوا أنفسهم في مقارنة مع الغرب المتقدم، وكانت الصدمة الأولى هي حملة نابليون على مصر، بالإضافة إلى ضعف الدولة العثمانية ودخول المستعمر الغربي، وكان هذا الاحتلال بمثابة المحرك الأساسي لنهضة العرب، فظهرت تيارات فكرية تعددت مدلولات النهضة بتعددها، فكانت العودة إلى نقاء الإسلام الأول ورفض البدع هو سبيل النهضة عند التيار الإصلاحي، كما عاد التيار القومي إلى القواسم المشتركة بين العرب، فلا سبيل للنهضة إلا بالوحدة، وكان الغرب عائقا للنهضة لدى هاذين التيارين، إما لما يحمله من فكر مادي يتعارض مع قيم الإسلام أو لأنه يسعى إلى تفرقتنا، إلا أن

التيار الليبرالي التغريبي رأى أن التفوق الغربي راجع لتقدمه العلمي، لذلك كان من الواجب الاهتمام بالعلم، كما أن النموذج الغربي للنهضة حسب هذا التيار هو النموذج الأمثل الذي يجب الإقتداء به

ثانيا: قضايا الفكر العربي المعاصر

في الحقيقة أن المقصود بالفكر العربي المعاصر تلك التيارات الفكرية التي شهدها النصف الثاني من القرن العشرين، والتي كانت انعكاسًا لجملة من المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية في العالم العربي، فبعد تحررأغلب البلدان العربية شهد العالم العربي سلسلة من النكبات بداية بنكبة فلسطين عام 1948، وفشل الوحدة بين مصر وسوريا (1958 – 1961) وصولاً إلى نكسة حزيران 1967 ، هذه الأخيرة التي كشفت عن مظاهر الأزمة التي يعانيها جسد الأمة العربية وفكرها، فالمهزوم في حرب 1967 لم يكن الجيش فقط بل الأمة كلها، لقد وضعت الأزمة بتعبير ياسين الحافظ كل الإنجازات العربية على المحك وسلطت الأضواء الكاشفة على جميع جوانب الوجود العربي الراهن ، لقد كانت حرب الأيام الستة اختبارًا حقيقيًا لبنى المجتمع العربي وهياكله وحركته وسير تطوره.وفي إطار استجابة الفكر العربي المعاصر للواقع العربي المتأزم ، ونقده للواقع والفكر، برزت قضايا عديدة أهمها: الهوية ، التراث، الديمقراطية ، العلمانية.

ـ قضية الهوية:في واقع الأمر أن مسألة الهوية كانت قد اقتربت من الحسم لصالح هوية عربية حتى أواخر الستينيات من القرن الماضي، لكن توالي الهزائم بداية بنكسة 1967 جعل الإحساس بالانتماء إلى أمة عربية واحدة يتراجع لدى الجماهير ولدى التيارات الفكرية على السواء، وانتهى الأمر إلى الدعوة إلى هويات مختلفة : إسلامية، عربية، عرقية، قطرية، إقليمية. من دعاة الهوية الإسلامية من رأى أن الإسلام هو المقوم الوحيد لهويتنا، وأن القومية مقولة علمانية، تناقض العقيدة والدين ، أما أصحاب الاتجاه القومي العربي فقد حاولوا التأكيد على أن العروبة هي المقوم الأساسي في تحديد هويتنا. والواقع أن مفهوم العروبة لم يظهر إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر، عندما بدأ الأتراك في الإعلاء من شأن العنصر التركي وإحياء النزعة القومية الطورانية ، وإتباع سياسة التتريك.

لكن مهما كانت الروابط التي تربط الأقطار العربية، فهي قابلة لأن تتفكك عندما تختل العلاقات بين السلطة والشعب، وينعدم التمثيل السياسي ويستبد المنتفعون بمواقع السلطة، وهذا ما دفع بالفكر القومي في السنوات الأخيرة إلى التشديد على حقوق الجماعات والأقليات والديمقراطية ومفاهيم المجتمع المدني.وبسبب التحولات العربية والدولية بعد أزمة الخليج تعاظمت الدعوات إلى القيام بمراجعة نقدية لأسس الفكر القومي، بهدف تجديده بما يجعله يستجيب فكرًا وممارسةً لمتطلبات إخراج الواقع العربي الراهن من أزمته. كما أفرزت هذه التطورات حالة جديدة من النظر إلى مسألة الهوية تقوم على اعتبار الهوية العربية مجرد وهم حالم ، وأننا لم نحصد من ورائها إلا الخيبة والفشل، ولذلك فلا أمل للعرب إلا الاندماج في منظومات إقليمية تأتي في مقدمتها الشرق أوسطية.

ـ **قضية التراث:**تعد قضية التراث قضية القضايا في الفكر العربي المعاصر، و يرجع ذلك إلى أمرين: أولهما : أن التراث مشرع الأبواب على ماضٍ مقدس، و ثانيهما : أن التراث ملتحم بحاضر متخلف.والحديث عن التراث يحمل معه بصورة ضمنية أو صريحة كل القضايا الأخرى التي نصادفها في الفكر العربي المعاصر، مثل : قضية الأصالة والمعاصرة ، قضية التراث والتجديد ، قضية الهوية ، قضية التنمية، فكل هذه القضايا مرتبطة بالموقف من التراث بشكل أو بآخر. وفي حقيقة الأمر أن قضية التراث طرحت في الفكر العربي منذ تلك الصدمة الحضارية التي تولدت عن احتكاكنا المباشر بالغرب في أوائل القرن التاسع عشر ، فمنذ ذلك الحين [2] أصبح الشغل الشاغل للعقل العربي هو التساؤل عما ينبغي أن يكون عليه موقفه من هذه المواجهة : هل يحتمي بتاريخه وتراثه الماضي، ويتخذ منه درعًا تدفع عنه غوائل التيار الكاسح المتدفق من بلاد غربية متفوقة ؟ أم يساير التيار الجديد أملاً في أن يكون له نصيب في ذلك التقدم المادي والمعنوي الذي حقق للحضارة الأوروبية تفوقًا ساحقًا على سائر حضارات العالم القديم ؟

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن التصور الذي حمله رواد الفكر العربي في القرن التاسع عشر لمشروع النهضة كان سببًا في ظهور مشكلة التراث ، إذ بدل أن ينطلق هؤلاء الرواد في تشييد حلمهم النهضوي من الحاضر ومكوناته الفعلية، راحوا يتصورون النهضة إما قفزًا على الماضي

وذلك بتخريج الرجل العربي العصري الذي لا يرجع تاريخه إلى أكثر من خمسمئة سنة من التاريخ الأوروبي ، وإما في الاعتبار القائل بأن لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها

لكن ومنذ السبعينيات ونتيجة التحديات الكبيرة التي واجهت العالم العربي ظهرت دراسات تراثية ، حاولت البحث عن إجابات وحلول لقضايا التخلف، عن طريق بناء موقف جديد من التراث ، كما يظهر ذلك في أعمال حسين مروه ، وطيب تيزيني، وحسن حنفي ، و محمد عابد الجابري ، و محمد أركون وغيرهم، في حقيقة الأمر يكاد يجمع أغلب الباحثين المهتمين بمسألة التراث أن الفكر العربي حتى أواخر الستينيات من القرن الماضي كان يتجلى في ثلاثة اتجاهات، تتحدد بناءً على أساس موقفها من التراث و الحداثة ، أو الأصالة و المعاصرة:

-الاتجاه السلفي : الذي يدعو إلى العودة إلى الإسلام في صفائه الأول.

-الاتجاه العلماني : و هو الذي يتبنى النموذج الغربي الحديث بصورة مطلقة و يدعو إلى القطيعة التامة مع التراث.

-الاتجاه التوفيقي : و هو الذي سعى إلى إيجاد نوع من التقارب بين التراث العربي الإسلامي و ما أفرزته الحداثة في الغرب.

قضية الديمقراطية: منالمفاهيم التي لا يزال الجدال و النقاش قائمًا حولها مفهوم الديمقراطية التي شكلت إحدى اهتمامات مفكري عصر النهضة ، مثل فرح أنطون و شبلي شميل وعبد الرحمن الكواكبي، وحتى رواد الإصلاح الديني لم يرفضوا فكرة الديمقراطية، وإن سعوا إلى معادلتها بالشورى الإسلامية، ولكن بعد فشل التجارب البرلمانية العربية توارى شعار الديمقراطية السياسية ليترك مكانه لشعار الديمقراطية الاجتماعية، غير أنه بعد هزيمة 1967 عادت الديمقراطية لتحتل موقع الصدارة، وذلك يعود إلى إيمان الكثير من المثقفين العرب أن سبب إخفاق المشروع القومي العربي هو غياب الديمقراطية.ويجري اليوم التركيز بشكل كبير على الديمقراطية وحتميتها لتقدم المجتمع العربي والخروج من التخلف، بل هناك من أكد أنها [2] كل شيء لأنه خارج إطار الديمقراطية ليس هناك حل لأي شيء ، وبهذا أخذت فكرة الديمقراطية أبعاد الأسطورة الخلاصية

بتعبير طرابيشي، واحتلت بذلك الموقع الذي احتلته من قبل فكرة الاشتراكية وقبلها فكرة الوحدة العربية.

قضية العلمانية:كانت العلمانية على رأس اهتمامات مفكري عصر النهضة وكانت تعني أول الأمر فصل السلطة الروحية عن السلطة المدنية، وكان المقصود الدعوة إلى دولة قومية عربية ضدًا على الجامعة الإسلامية ، أو المطالبة بدولة إقليمية ضدًا على الإمبراطورية العثمانية ، ونادى النهضويون بالعلمانية كشرط لتجاوز التخلف واللحاق بركب الحضارة و منهم فرح أنطون وعلي عبد الرازق. ومازالت إشكالية العلمانية إحدى أهم المسائل التي تناقش اليوم والتي لم يجر الفصل فيها، ولكن بعكس مفهوم الديمقراطية الذي يلقى قبولاً من قبل الكثيرين فإن هناك جدلاً واسعًا بشأن مفهوم العلمانية بل إنه من أكثر بؤر الصدام احتدامًا في الثقافة العربية المعاصرة ، وواحد من أكثر مفاهيم الفكر العربي المعاصر التباسًا سواء على مستوى اللفظ أو الرسم أو الجذر اللغوي ، فأصحاب التيار الإسلامي السلفي يقفون موقف الرفض المطلق للعلمانية لأنهم يفهمون منها أن نستبدل بالشرائع والقواعد التي جاءت بها آيات محكمات في القرآن شرائع وقواعد وآداب وضعية، أي في جملة واحدة : تعطيل الشرائع والقواعدوالآداب الإسلامية واستبعادها من حياة المسلمين ، بمعنى أن العلمانية تدعو إلى التخلي عن الدين. بينما يرى المدافعون عن العلمانية أنها شرط ضروري لمجتمع متقدم وديمقراطي،ولا تعني التخلي عن الدين ، كما أنها لا تعني نسخ تجارب الآخرين أو استعادة معطيات نظرية جاهزة ، بل نادوا بضرورة تحليل وإعادة بناء هذا المفهوم وتأصيله وفق مقتضيات الواقع العربي الراهن، ووفق الأوضاع العالمية.